الثنائيات الضدية وفق الباعث النفسي في شعر صفي الدين الحليّ (ت ٧٥٠هـ)

أ.د ياسر علي عبد الخالدي
كلية الآداب/ جامعة القاسية
Yasser.abed@qu.edu.iq

الباحثة/ منار حميد خلف
كلية الآداب/ جامعة القاسية
Mnarhmyd783@gmail.con

الخلاصة :

تُعد بُنية التضاد من البنيات الاسلوبية التي تُغني النص الشعري بالدلالات ، والشاعر يلجأ إلى الثنائيات الضدية عندما يُريد أنْ يُسلط الضوءَ على موضوعٍ معين لهُ تأثير على نفسه وعاطفتهِ ، فينقل لنا تجارب وتناقضات في حياته عبر التضاد ، وبما أنّ الشعر فن أدبي لا ينبعث إلا عن أحساس الشاعر ولا يصدر إلا عن وجدان وعاطفة ، فلابُدّ لهُ من بواعث تُساعدهُ على النظم والتركيز، ومن هذه البواعث (الباعث النفسي) فهو مُرتبط بنفسية الشاعر وانفعالاتها ، ولقد أكدت الدراسات النفسية على أهمية دراسة نفسية الاديب وعلاقتها بما يُقدمهُ من عملٍ فني ، والشاعر صفي الدين الحلي مرَ بالكثير من الاحداث التي كان لها الأثر في نفسيتهِ ، وقد عبر عن تجاربه في الحياة من خلال الثنائيات الضدية فنقل لنا آلامه ومشاعره وعواطفه .

الكلمات المفتاحية : ثنائيات ضدية ، باعث نفسي ، صفي الدين الحلي

Opposite dualities according to the psychological motive in the poetry of Safi al-Din al-Hilli (d. 750 AH)

Res. Manar Hamid Khalaf
Faculty of Arts / Al. Qadsiya University

Prof. Yasser Ali Abdel Khalidi
Faculty of Arts / Al. Qadsiya University

Abstract:

The structure of opposition is one of the stylistic structures that enriches the poetic text with connotations, and the poet resorts to oppositional dualities when he wants to shed light on a specific topic that has an impact on himself and his emotions, so he conveys to us the experiences and contradictions in his life through opposition, and since poetry is a literary art that only emanates from feelings The poet only emanates from conscience and emotion, so he must have motives that encourage order and focus, and among these motived is the negative motive, as it is linked to the poet's psyche and its emotions. Psychological studies have emphasized the importance of studying the psyche of the writer and its relationship to the artistic work he presents, and the poet.

Keywords: Dualities against , Psychological motive , Safi al-Din al-Hilli

إنّ ميدان التحليل النفسي من أخصب ميادين علم النفس من وجهة علاقاتهِ الادبية ، فإنّ تنقيبه في أعماق النفس الخفية تقف وجهاً لوجهٍ أمام طائفة من المُعضلات التي شغلت باحثي الأدب قروناً طويلة ولا تزال تشغلهم[١].

وقد أشار النُقاد العرب القُدامى إلى تأثر الأدب بالنفس الانسانية وذلك وجدناه عند بشر بن المُعتمر (ت. ٢١٠هـ) إذ أشار إلى الباعث النفسي من خلال قوله: ((والشيء لا يحنُ إلى ما شاكلهُ ، وإن كانت المشاكلة قد تكون في صفات إلاّ أنّ به مع الشهوة والمحبة))[٢]. وهذا القول يعني أنّ البواعث النفسية متنوعة منها الرغبة والرهبة والشهوة ، ومن ضمنها التهيؤ النفسي للتفكير واختيار الوقت المناسب للإبداع ، وذلك لا يتم إلا في حالة الرغبة المدفوعة بالعاطفة بوصفها المؤثر الفعّال في العملية الابداعية ، وهذه المعاني تنم عن المستوى النفسي لولوج النص الادبي من الداخل لمعرفة كُنه الذات المُبدعة[٣] ، فكُلما كان الباعث مرتبط بنفسية الشاعر من فرح وحزن وشوق كان صادقاً في قول الشعر ؛ لأنهُ مُرتبط بما هو نفسي ، فهو وليد الحالة النفسية للشاعر.

فحديث النُقاد العرب القُدامى عن البواعث على قول الشعر تؤكد تعلق الابداع بنفسية الشاعر ، ونجد أنّ النُقاد تحدثوا كثيراً عن البواعث لقول الشعر ومنهم الناقد حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) .

إذ قال: ((وهي أمور تحدثُ عنها تأثيرات وانفعالات للنفوس لكون تلك الامور ممّا يناسبها أو يبسطها أو ينافرها ويقبضها ، أو لاجتماع البسط والقول والمناسبة والمنافرة في الأمرِ من وجهين ، فالأمر قد يبسط النفس ويؤنسها بالمسرةِ والرجاء ، ويقبضها بالكآبة والخوف ، وقد يقبضها ويوحشها بصيرورة الأمر من مبدأ سارٍ إلى مآل غير سارٍ))[٤]. اي أنّ الباعث مرتبط بالنفس وانفعالاتها .

وهذا النص يكشف لنا عن نظرة معينة لدى القدماء لمعنى الانفعال في تتبع الشعر بما يحملهُ من بواعث مثيرة لتحريك القرائح ، وبذلك يعكس بُنية النص من الداخل فيبدو في الكشف عن الحياة النفسية الكامنة في الذات المبدعة[٥] . أي أنّ الباعث يساعد في تحليل بنية النص .

أمّا علماء النفس فقد أدركوا مدى أهمية دراسة الابداع الشعري ، لأنّه يُمثل حالة انفعالية حقيقية تُعبر عن المعاناة النفسية للمبدع ويعتمد الابداع الشعري على المشاعر والاوهام التي تنشأ من العقل والقلب ، ممّا يجعل المبدع يعيش تحت ضغط نفسي يؤثر على نفسيتهِ وسلوكه ، ومن خلال انتاجه الفني يتمكن المبدع من

التعبير عن تلك المشاعر والأوهام التي يعيشها في عالمهِ الخاص وينقلها إلى حياته الفنية[٦] ، فالضغط النفسي الناشئ من العقل والقلب ينقلها الشاعر المبدع إلى فنه .

وينصرف اصحاب التحليل النفسي إلى الاهتمام بالمنبع الذي خرجت منه خيالات الفنان ألا وهو (اللاشعور) ، ومن هؤلاء (فرويد) الذي يُحاول أن يدرس الفنان من حيث هو فنان ، وهذا التحليل النفسي لا تنفرد به مؤلفات فرويد فحسب بل هناك تلامذته واتباعه الذين جعلوا رسالتهم أن يتفهموا منهجه[٧]، فقد اعتمدوا على الباعث النفسي .

إنّ اهمية الدراسة النفسية في الادب لم تعد خاصة بالبحوث العالمية فأصبح هناك شبه اجماع لدى الباحثين والنقاد في العالم أنّ اقرب الحلول واوضحها لمشاكل الادب ومجاهله هي الدراسة النفسية ، فالكثير ممن يعدهُ الباحثون والنقاد مشاكلاً ادبية لا يستقيم فهمها إلا بإخضاعها للمجال النفسي[٨]، فالدراسة النفسية بها يطلع المتلقي على دوافع الفن .

وذلك يعني أنّ العامل النفسي يُساعد في تحليل النص الادبي وفهم خفاياه من خلال دراسة نفسية الأديب ، وسنقوم بالكشف عن الثنائيات الضدية وما تحملهُ من معاني ظاهرة وكامنة على وفق الباعث النفسي الذي دفع الشاعر إلى استعمال التضاد في شعره ؛ ذلك لانّ شعرية التضاد تتمثل في قدرة الشاعر على الجمع بين المتناقضين فمن خلالها يبرز ابعاد الصراع الداخلي الذي يعيشه ، فالثنائيات الضدية تُسهم في اضفاء شعرية خاصة ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببنيات النص ودلالتها التي تتجاوز البنية السطحية إلى البنية العميقة القادرة على خلق توازن بين باطن الشاعر وظاهره ، وفي تدرج يناسب الحالة النفسية للشاعر ، والتوتر الذي ترتكز عليه علاقته بالأشياء[٩] .

وصفي الدين الحلي من الشعراء الذين عاشوا احداثاً كثيرة مرت بهم وأثرت على نفسيتهم وبالتالي عُكِس ذلك على الشعر ، فمشاعرهم تنوعت بين حزن وألم وفراق وحنين وشوق وغربة وفرح وسرور وبهجة ، وهذه المشاعر النفسية التي عاشها الشاعر وجدت في شعره عبر عنها من خلال الثنائيات الضدية فجعل الشاعر من الثنائيات الضدية وعاءً يصب فيه المشاعر التي اثرت في نفسه لشد ذهن القارئ في البحث ، عن المعاني الكامنة خلف تلك الثنائيات المتضادة .

فنجد مشاعر الألم والحزن في قول الشاعر[١٠] :

[السريع]

ما دامَ جريُ الفلكِ الدائر لم يبقَ من برٍ ولا فاجرِ

ما عطفَ الدهرُ على حاتمٍ كلا ، ولا قصرَ عن مادرِ[١١]

إنّ خيول الدهر إن طاردت اتبعت الاول بالآخرِ

لا تحرصن منهُ على موردٍ فغايةُ الوارِدِ كالصادرِ

في هذه الابيات يذكر الشاعر حكمة تقليدية عن دورة الفلك فهي لا تُبقي احداً من البشر تقياً كان أو فاسقاً ، ولا تسمح بعطف الدهر على ايّ منهما فخيول الدهر أي الموت يطارد الجميع[١٢] ، فكان توظيف الحكمة مُناسباً للمواساة ، وأظهرت الطاقات جو الحزن والفراق من خلال ثناية (بر ، فاجر) ، (الاول ، الآخر) ، (وارد ، صادر) والتضاد المعنوي في (حاتم ، مادر) فالشاعر اراد معنى الكرم والبخل ولم يستعمل هذه الالفاظ بل جاء بألفاظ تعبر عن معنى الكرم والبخل ، والقصيدة تقوم على ثنائية (الذات والآخر) والعلاقة بدورها تقوم على هذه المتضادات التي تحيل الشاعر إلى علاقة التوتر والشعور باليأس[١٣] .

امتازت هذه الابيات بتخييم الحزن عليها فالشاعر صادق في مشاعره وآلامه وهو يبكي صديقاً له وافته المنية وهذا الشعور بالحزن والألم والفراق لم نتوصل اليه إلا من خلال بنية التضاد إذ اثرت الدلالة في النص ، وجعلت القارئ يشعر بتلك الاحزان والآلام الي عاشها الشاعر بسبب الفراق وبذلك استطاع أن يرسم لنا صورة الحزن والالم الذي يعيشهُ في نفسه من خلال التضاد .

ومن معاني الحزن العميق الذي صاحبه اضطراب نفسية الشاعر ما نجدهُ في قصيدة كتبها في رثاء خاله صفي الدينِّ بن محاسن إذ يقول[١٤] :

[الكامل]

سَفَهاً إذا شُقَّت عَلَيكَ جُيوبُ إن لَم تُشَقَّ مَرائِرٌ وَقُلوبُ

وَتَمَلُّقاً سَكبُ الدُموعِ عَلى الثَرى إن لَم يُمازِجها الدَمُ المَسكوبُ

يا حَمزَةَ الثاني الَّذي كادَت لَهُ صُمُّ الجِبالِ الراسِياتِ تَذوبُ

إِن ضاعَ ثارُكَ بَينَ آلِ مَحاسِنٍ تِلكَ المَحاسِنُ كُلُّهُنَّ عُيوبُ

عبّر الشاعر عن حزنه الشديد لموت خاله وبث مشاعر الحزن والألم والفراق من خلال الثنائية الضدية المعنوية (شقت ، لم تشق) فالتضاد هنا عبر عن مشاعر الالم والحرقة في نفسهِ ، كذلك التضاد اللفظي في (محاسن ، عيوب) فالشاعر يعيش تناقضاً واضحاً داخل نفسه المُتعبة الحزينة بين البُكاء لفقد خاله وبين تحفيز ذاته للأخذ بالثأر وبذلك يستطيع أن يحفز خصومه على الآخذ بالثأر ، فالموت من البواعث الدالة على الحزن فهو مصدر الحزن الاعظم يعبر عنه الأنسان بالبكاء ، وخاصة الحزن والبكاء على الاقارب والاصدقاء ، فتكون مشاعر الحزن نابعة من احساس الشاعر ونفسيتهُ المتألمة .

إنّ مثل هذا الحشر للثنائيات الضدية حقق اثراءاً دلالياً وفنياً ليخرج لنا الصورة البلاغية المكتسبة حالاً بيانية وبديعية[١٥] ، وبذلك تكتمل الصورة التي ارادها الشاعر في التعبير عن حزنه الشديد .

واتخذ الشاعر من الثنائيات الضدية وسيلة للتعبير عن أحزانه وآلامه النفسية ومنهُ قوله[١٦] .

[البسيط]

ماتت لموتكِ خلقٌ كنت غيثُهم وهدّ فقدك من اهل الرجا أُمما

لبيتَ داعي الردى لما فُجئت به طوعاً ولم ترَ منهُ عابساً وجما

رميتَ بالذّلِ قوماً أنت عزهم وما رميت ولكن الإله رمى

الشاعر أراد أن يبين لنا أنّ الحزن العميق ليس في نفسهِ فقط بل في كلُ نفسٍ ، وكان ذلك في الثنائية الضدية المعنوية (رميت ، ما رميت) ، فالنفس أصبحت تفتقد الامير نتيجة ما رمى عليهم من آلام الحزن والفراق ثم ينتفض الشاعر ويقول ليس هو من رمى عليهم من خلال نفي الفعل (ما رميت)[١٧] ، فالمعنى الكامن خلف هذه الثنائية والذي اراد الشاعر إيصاله للمُتلقي هو أنّ موت الامير عماد الدين جعل القوم يعيشون الذل من بعده والحزن والاسى ، والشاعر اراد ان يضفي الصفة الدينية على الفقيد أي انّه مُسدد من الله .

لقد استطاع الشاعر الوصول إلى هذا المعنى من خلال مسافة التوتر التي أضفتها الثنائيات الضدية على النص ، ذلك لان التضاد يفسح المجال للعقل أن يبرز قدراته وللشعور أن يثار يقينه ، فيسرح القارئ في

فضاء القصيدة واضعاً يده على المعنى في كل مرةٍ ، فيظهر له غير الذي ظهر في المرةِ الأولى ، ويتداعى المعنى الواحد تلو الآخر ، فالضد يجلب إلى الذهن ضده أو مقابله ؛ ويستند أحدهما على الآخر[١٨].

وتتضح مشاعر الحزن في قصيدة رثى بها قاضي القضاة شمس الدين إذ يقول[١٩] :

[الخفيف]

ما رأيناهُ من قبل مجراه خطاً ساطعُ النور في ظلامِ المدادِ

وكُلُّ خطٍ سوادهُ في بياض حسنٍ وتراهُ بياضهُ في السوادِ

أين خصبُ الاكنافِ في الزمن الماحل والسبط في السنين الجَعادِ

والجوادُ السهلُ اللقاءِ ، أذا ما كان سهلُ اللقاءِ غيرُ جوادِ

الشاعر قامَ بشحن جو القصيدة بالثنائيات الضدية اللفظية (نور ، ظلام) (سواد ، بياض) (بسط ، جعاد) وبالثنائيات الضدية المعنوية (سهل اللقاء ، ما كان سهل اللقاء) ، (جواد ، غير جواد) ، وبث الشاعر مشاعر الحزن والألم في القصيدة من خلال الثنائيات الضدية ، فأجاد في بيان حالة الاضطراب النفسي الذي عاشه نتيجة الحزن والقلق من المصير بعد الفقيد ، والثنائيات في الابيات مثلت انعكاساً لنفسية الشاعر وهو يخضع لأحزانهِ وآلامهِ[٢٠] ، وتمثل ثنائية (الابيض ، الاسود) فلسفة الحياة والموت[٢١]، فاللون الابيض يرمز للحياة والاسود يمثل الموت ، وأستطاع الشاعر أن يبين لنا صفات المرثي فهو المبسوط اليدين لا جعداً أي بخيلاً ولئيماً ، وبهذا ومن خلال حشد التضاد جعل المتلقي ينشغل بالصورة التي رسمها الشاعر بتعابير الحزن الواضحة ، فالذي مثلته هذه الثنائية من الابيض والاسود حقيقة نفس الشاعر ، فيحملان الدلالة النفسية أكثر من كونها تقليداً أو تحدياً أو رغبةً في الابداع ولا سيما حينما يتقابلان[٢٢] ، فمن خلال الجمع بين اللونين نستشعر الحزن والألم في نفس الشاعر .

وبما أنّ الظواهر النفسية ذات وحدة لا تتجزأ ، وهي تصدر عن الانسان ككُل ، فلا توجد افعال عقلية محصنة أو انفعالية محصنة لا تدخل فيها عناصر نفسية أخرى ، وليس الاختلاف بين الحالات النفسية الا في نسبة تركيب هذه العناصر ، فالشوق مثلاً من الحالات النفسية الفاعلية ، ومع ذلك فإنّ الشوق تصحبه حالة عقلية هي تخيل الشيء المشوّق اليه أو التفكير فيه ، كما تصحبهُ حالة وجدانية هي الشعور بالحاجة إلى هذا الشيء ، أو الشعور بالألم أو القلق في غيابه والراحة في الحصول عليه[٢٣] ، ولم يبين لنا الشاعر صفي الدين

الحلي مشاعر الحزن والالم فقط بل نجد مشاعر الحب والشوق ، فهي متعلقة بنفس الشاعر ووجدانه ، ومن ذلك قوله[٢٤] :

[البسيط]

البيضُ دونَ لِحاظِ الأَعيُنِ السودِ وَالسُمرُ دونَ قُدودِ الخُرَّدِ[٢٥] الغيدِ

وَالمَوتُ أَحلى لِصَبٍّ في مَفاصِلِهِ تَجري الصَبابَةُ جَريَ الماءِ في العودِ

مَن لي بِعَينٍ غَدَت بِالغُنجِ ناعِسَةً أَجفانُها وَكَّلَت جَفني بِتَسهيدِ

الشاعر يصف محبوبته فقد جعل صورة المحبوبة بوجهٍ منير متفتح بأخاديد وتقوم هذه الصورة على اساس ثنائية (البيض والسمر) ، (ناعسة ، تسهيد) وهذه الثنائيات الضدية لفظية كُل طرف من هذه الثنائية لهُ مجموعة من الافعال المتعلقة به تفصح عنه فـ (البيض دون لحاظ الاعين السود) يقابلها (السُمر دون قدود الخرد الغيد) وجاء الشاعر بالثنائية الضدية المعنوية (الموت ، والماء) والذي يقابل الموت هو الحياة ، ولكن الشاعر جاء بلفظة تدل على معنى الحياة (الماء) ، وذكر صورة الموت لأنهُ يشكل مرارة في الحياة ، والشاعر يميل إلى هذا التضاد ليشعرنا بلوعة العاشق المُحب الذي تجري الصبابة فيه جري الماء في العود ، ويرسم لنا صورة محبوبته ذات العيون الناعسة اجفانها التي كانت السبب في تسهيد جفنه .

فمن خلال توالي الثنائيات الضدية استطاع الشاعر ان يُمرر لنا مشاعرهُ النفسية من حالة الحُب والعشق التي يعيشها ، ووجود التضاد اللوني (البيض والسُمر) حقق بُعداً جمالياً أكد حالتي السُهد والقلق مما خلق لنا فيما بعد صورة انفعالية بجمالِ المحبوب ، وجهت قُدرة الشاعر التعبيرية نحو الثنائيات الضدية لتفصح لنا عن مشاعرهِ[٢٦] ، فالثنائيات الضدية ساعدت في تمرير المشاعر النفسية للشاعر .

وصفي الدين الحلي شاعر وفنان رقيق العاطفة مُرهف الحس يتأثر بالجمال ويعشق الحُسن ويُقدس الحُب ويُقدرهُ ومنه قوله[٢٧] .

[الكامل]

يا رَبُّ أَعطِ العاشِقينَ بِصَبرِهِم في الخُلدِ غاياتِ النَعيمِ المُطلَقِ

وَأَذِقهُمُ بَردَ السُرورِ فَطالَما صَبَروا عَلى حَرِّ الغَرامِ المُقلِقِ

حَتّى يَرى الجُبَناءُ عَن حَملِ الهَوى غاياتِ عِزِّهُمُ الَّتي لَم تُلحَقِ

فَيَكونَ أَصغَرُ جاهِلٍ حَمَلَ الهَوى يَلهو بِأَكبَرِ عالِمٍ لَم يَعشَقِ

ذكر الشاعر أنّ العاشق عندهُ أفضل ممن لم يعشق ، وإنّ اكبر عالم لم يدخل الحبّ قلبه لا يستحق المُقارنة بأصغرِ جاهلٍ عرف الهوى طريقاً إلى قلبه[٢٨] ، فالحُب شعور عاطفي نفسي مؤثر .

ومن خلال الثنائيات الضدية اللفظية (برد ، حر) ، (أصغر ، أكبر) يبين لنا لوعة الحب ونار الهوى ، ويأمل أن تُطفأ نار الحُب والهيام بالبرد في نعيم الخُلد كمكافأة لما تحمّله العُشاق من ألم ولوعة الحب في الحياة، فجعل من الحُب شيئاً مُقدساً اراد لهُ المكافأة من اللهِ بدخول المحبين الجنة ، فعبر من خلال التضاد عن مشاعر الحب والعشق ولوعة المحبين ، وهذه الصورة التي رسمها جعلت المُتلقي كثير التأمل فيها ، فقد عبرت عن شعور عاطفي نفسي .

وكثيراً ما نجد مثل هذه المشاعر والعواطف المُعبرة عن نفسية الشاعر ومن ذلك قوله[٢٩] : [الرجز]

يا جيرَةَ الحَيِّ أَجيروا عاشِقاً ما حالَ عَن شَرعِ الهَوى وَدينِهِ

باطِنُهُ أَحسَنُ مِن ظاهِرِهِ وَشَكُّهُ أَوضَحُ مِن يَقينِهِ

عبر الشاعر عن حالة العشق وتأثيره على احوال العاشقين وسلوكهم ، فما يضمرهُ في قلبه أكبر وأعمق من الذي ظهر عليه وذلك باستعمال الثنائية الضدية اللفظية (باطنه ، ظاهره) ، والشك والتردد في هوى المحبوب هو الغالب عليه في ثنائية (شك ، يقين) ، فظهر البيت كوحدة مُترابطة من خلال التضاد بين حال العاشق وهواجسه[٣٠] ، فجاءت الثنائيات الضدية اللفظية تعبيراً عن حالة الشاعر النفسية من وجع الحب ولوعتهِ.

أما الشعور بالغربة فلهُ دور في الشعر فقد عبر صفي الدين الحلي عن غربته ومدى حنينه واشتياقه إلى مدينتهِ الحلة التي تركها وتغرب عنها مُرغماً فشكل الاغتراب الباعث النفسي لدى الشاعر ليعبر عن حنينه واشتياقه لبلدهِ .

إنّ الغربة فرضتها الظروف الطبيعية والظروف الاجتماعية وعانى منها الشعراء ، وعبروا عنها في اشعارهِم فمنهم من وقف على الاطلال ومنهم من بكى على الأهل والاقارب ومن آلفَهم في المكان[٣١] ، فالغربة ليست من اختيار الشاعر وإنما فرضٌ من المجتمع .

ونجد الشعور بالغربة والحنين إلى الوطن في شعر صفي الدين الحلي إذ يقول[٣٢] .

[الطويل]

أَخِلّايَ بِالفَيحاءِ إن طالَ بُعدُكُم ... فَأَنتُم إلى قَلبي كَسِحرِيَ[٣٣] مِن نَحري

وَإِن يَخلُ مِن تِكرارِ ذِكري حَديثُكُم ... فَلَم يَخلُ يَوماً مِن مَديحِكُم شِعري

أُطالِبُ نَفسِيَ بِالتَصَبُّرِ عَنكُمُ ... وَأَوَّلُ ما أُفقِدتُ بَعدَكُم صَبري

وَرُبَّ نَسيمٍ مَرَّ لي مِن دِيارِكُم ... فَفاحَ لَنا مِن طَيِّهِ طَيِّبُ النَشرِ

تُجاذِبُني الأَشواقُ نَحوَ دِيارِكُم ... وَأَحذَرُ مِن كَيدِ العَدُوِّ الَّذي يَدري

إنّ الشعور بالغربة والحنين إلى مدينة الحلة واضحة في هذه القصيدة التي عبر من خلالها الشاعر عن مشاعر أثرت في نفسهِ تأثيراً عميقاً وخلفت حُزناً ممتزجاً بالشوق والحنين إلى المكان الذي ولدِ فيه صفي الدين الحلي وعاش طفولته وشبابه ، وكان لأسلوب التضاد في الابيات الدور الفاعل في كشف هذه المشاعر المؤثرة ، فالتضاد المعنوي (إن يخلُ ، لم يخلُ) ، جاءت لتعبر عن حنين الشاعر وتذكره الاصدقاء والاحباب ، ويواسي الشاعر نفسه بالصبر ولكن النفس تأبى ان تصبر على فراق الديار وفراقكم ، ويستشعر النسيم الهاب من دياره فيطيب لنفسهِ ، وبيّن مدى شوقه والحنين الذي يأخذه إلى الديار ولكن الخوف والقلق من كيد الاعداء المتربصين به يمنعه من الوصول إلى مدينتهِ الحلة .

كل هذه المشاعر المتدفقة في هذه الابيات ، جاءت من شوق وحنين وشعور عاطفي صادق إلى المكان المحبب إلى نفس الشاعر ، ومن خلال الثنائية الضدية المعنوية تبرز لنا شدة الشوق والحنين للأهل والاصدقاء، فكان الباعث نفسي .

إنّ حنين الشاعر إلى مدينتهِ تولّد لديه الاحساس بالغربة وهي تجربة انسانية صعبة ؛ لانّ الانسان عندما يُفارق أرضه واهله فإنّهُ يعمد إلى وضع نفسه في امتحانٍ صعب لمشاعرهِ وصفي الدين الحلي واحدٌ من هؤلاء الذين رحلوا عن ملاعب صباهم ومزارات احبابهم ، فلذلك راح يرسل أناته شوقاً وحنيناً إلى تلك الربوع ، وهو أدق حساً ومقدرةً على التعبير عن خلجات نفسه[٣٤] .

وترى صفي الدين الحليّ يكلم المكان ويبثه احزانه واشواقه فيقول[٣٥] .

[الخفيف]

يا دارَ الاحباب ما كان أهنى بمغانيكِ ، عيشنا واحيلى

كم جلونا بآفقكِ البدرَ صُبحاً واجتلينا بجوكِ الشمس ليلاً

الشاعر يستنطق الديار ديار الأحبة لعلها تخبرهُ بأخبارهم ، فنجد في البيت الاول شعور متدفق تجاه الديار ، فيقيم الشاعر في حوارهِ مع المكان علاقة ودية في استعماله (يا) النداء التي ينادى بها العاقل فبذلك اضفى على المكان الروح الانسانية ، وكل حركة نفسية ذات مشاعر تدفع الانسان إلى التعبير عنها بنداء ما بطريقة تلقائية ، والذي يثير المتلقي ويجعله اكثر احساساً بمعاناة صفي الدين الحليّ هو انه اضاف الدار إلى الأحبةِ ، وهنا تظهر انفعالات الشاعر ، واستعمل الشاعر الثنائيات الضدية اللفظية (الصبح ، الليل) ، (الشمس ، البدر) لتكشف لنا عن حقيقة المشاعر المتمثلة بالشوق والحنين إلى الديار فهو يشير إلى كثرة السهر مع الأحبة ، وطالما كانت جلسات السمر تجلو ظلام الليل ويشق الصبح كآبة الظلام[٣٦]. أيّ شعور الغربة .

وثنائية (الصبح ، الليل) تحمل الدلالة النفسية ، فالشاعر جعل البدر للصبح والشمس لليل وهذا يدل على شعور نفسي بالفراق ففارق بين الشمس والصبح والبدر والليل ، والتضاد كشف لنا المعنى العميق في نفس الشاعر إلا وهو شعوره النفسي العاطفي بالغربة عن وطنه ، وجاء هذا مترابطاً مع البيت الأول الذي بث فيه الحزن.

فأراد ان يبعث الحزن في نفسه قبل نفس المتلقي ، وربما اراد الشاعر أن يعبر عن فقدان الطمأنينة والسكينة فالدار تمثل الطمأنينة والذي قصده الشاعر مدينته الحلة .

إنّ الباعث النفسي لدى الشعراء لا يقتصر على معاني الحزن والألم والبكاء والحنين والغربة والشوق ، فهناك باعث نفسي لمعانٍ جميلة ومشاعر فرح وسرور وبهجة والشعور بالارتياح النفسي ، فنجد صفي الدين الحلي يعبر عن مشاعر جميلة بالحياة استمدها من جمال الطبيعة فكانت باعثاً نفسياً لامس الشعور بالارتياح النفسي ومنه قوله[٣٧] :

[البسيط]

وَالسُحبُ تَبكي وَثَغرُ البَرَّ مُبتَسِمٌ ... وَالطَيرُ تَسجَعُ مِن تيهٍ وَمِن شَبَقِ[٣٨]

فَالطَيرُ في طَرَبٍ وَالسُحبُ في حَربٍ ... وَالماءُ في هَرَبٍ وَالغُصنُ في قَلَقِ

وَعارِضُ الأَرضِ بِالأَنوارِ مُكتَمِلٌ ... قَد ظَلَّ يَشكُرُ صَوبَ العارِضِ الغَدِقِ[٣٩]

وَأَطلَقَ الطَيرُ فيها سَجعَ مَنطِقَهِ ... ما بَينَ مُختَلِفٍ مِنهُ وَمُتَّفِقِ

وَقَد بَدا الوَردُ مُفتَرّاً مَباسِمُهُ ... وَالنَرجِسُ الغَضُّ فيها شاخِصُ الحَدَقِ

مِن أَحمَرٍ ساطِعٍ أَو أَخضَرٍ نَضِرٍ ... أَو أَصفَرٍ فاقِعٍ أَو أَبيَضٍ يَقَقِ

القصيدة في مدح الرسول الكريم محمد (صل الله عليه وآله) وبدأها الشاعر بوصف الطبيعة جرياً على عادة الشعراء القدامى إذ يفتتحون القصيدة المدحية بالغزل أو الوصف وغيرها ، والشاعر يحس الطبيعة بجميع جوارحه ، ووجدنا الشعور النفسي بجمال الطبيعة ، والشاعر يضفي الصور البيانية على هذه القصيدة فتظهر عنايته بالزخارف البديعية فهو يُطابق بين البكاء والابتسام وبين الطرب والحرب ، فهذه الثنائيات الضدية المعنوية رسمت لنا صورة الطبيعة وجمالها من خلال شعور نفسي بالارتياح لهذا الجمال والشاعر يخلع العواطف الانسانية على عناصر الطبيعة ، فالسحب تبكي والارضُ تستقبل امطارها فرحةً ، والطير يفرح لهذا العرس بين السماء والارض فيغرد مندفعاً بحبهِ للحياة وغريزتهِ لحفظ البقاء بالنسل لتتقلب مظاهر الطبيعة بين هذهِ المتضادات[٤٠] ، ثم يأتي بالثنائيات الضدية اللفظية (أحمر ، أخضر ، أصفر ، أبيض) ليعبر عن مشاعر الفرح فالورد تفتحت شقائقه من شدة الفرح وازدهرت الطبيعة بالألوان التي زيّن الشاعر بها القصيدة بين احمر زاهٍ واخضر مفعم بالحياة وأصفر جميل وأبيض ناصع[٤١] ، فالصورة الجميلة الزاهية الالوان من الطبيعة الخلابة المؤثرة في النفس تبعث على الارتياح والفرح وكانت مُناسبة لما اراده الشاعر ، فهذه المعاني تناسب شخصية النبي محمد (صل الله عليه وآله) والروح النقية الصافية كروحه الطاهرة ، وكانت الثنائيات الضدية وما تحملهُ من معاني الفرح والسرور وسيلة الشاعر ليعبر عن هذا الارتياح النفسي في وصف الطبيعة .

وكثيراً ما نجد الشاعر يعبر عن الارتياح وتحسن المزاج النفسي من خلال الربيع الذي يغير بالطاف نسائمهِ وجمال ورودهِ الجو ويكون تأثيره على النفس الانسانية فتشعر بالانتعاش والسرور والبهجة .

وخلاصة ما تحدثنا بهِ أن صفي الدين الحلي استطاع ان يمرر لنا مشاعره وأحزانه وآلامه عن طريق الثنائيات الضدية فجاءت هذه الثنائيات وفق الباعث النفسي الذي دعا الشاعر إلى قول شعره ، فمن خلال هذه الثنائيات استطاع ايصال المعنى بشكل يلامس احساس المتلقي ويؤثر فيه ، اضافة إلى اثراء الدلالة واضافة حيوية للنص ، فاستعمال الثنائيات الضدية لم تكن اضافة زخرفة وتزيين النص بل هي أداة للاطلاع على دواخل الشاعر الذي اراد ايصالها للقارئ وعشنا اللحظات التي مرت بهِ والذي قرب لنا الصورة هي هذه الثنائيات ن وشعرنا بالاضطراب النفسي الذي عاشه فكانت مشاعره مضطربة ، والخوف والقلق يسيطران على نفسيته ، ذلك لأنه عاش حياة متناقضة ، وكان الاقرب لتوضيح هذا التناقض هو التضاد ، ذلك لان الشاعر كان يفتقد إلى الأمان والاستقرار الطبيعي في بلده وبيت أهله وأصحابه .

هوامش البحث

(١) ينظر : مطلع القصيدة العربية ودلالتها النفسية : ٥٥

(٢) البيان والتبين : ١٣٨/١

(٣) ينظر : الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي : ٣١ ، ٣٢

(٤) منهاج البلغاء وسراج الادباء : ١١

(٥) ينظر : دواعي الشعر وحوافزه في الادب العربي القديم ، (بحث) : ٣٨

(٦) ينظر : بواعث الشعر في شعر الشواعر الاندلسيات ، (رسالة ماجستير) : ٢٩

(٧) ينظر : الاسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة : ٧٣

(٨) ينظر : مطلع القصيدة العربية : ٥٤

(٩) ينظر : تجليات التضاد في ديوان محمود درويش ، (بحث) : ٤٨٥

(١٠) الديوان : ٣٥٣

(١١) مادر : رجل من بني هلال ، بخيل ، لسان العرب : ١٦٣/٥

(١٢) ينظر : آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي : ١٦٧

(١٣) ينظر : شعر صفي الدين الحلي : ١٣٧

(١٤) الديوان : ٣٣٣

(١٥) ينظر : شعر صفي الدين الحلي : ١٣٨

(١٦) الديوان : ٣٨٣

(١٧) ينظر : الوان البلاغة في ديوان صفي الدين الحلي ، (رسالة ماجستير) : ١٢٢

(١٨) ينظر : لغة التضاد في شعر امل دنقل : ٥٥

(١٩) الديوان : ٣٥١

(٢٠) ينظر : شعر صفي الدين الحلي : ١٣٦

(٢١) ينظر : لغة التضاد في شعر امل دنقل : ١٠٣

(٢٢) ينظر : الثنائيات الضدية دراسات في الشعر العربي القديم :١٦٠

(٢٣) ينظر : الادراك الحسي عند ابن سينا : ٣٩ ، ٤٠

(٢٤) الديوان : ٤١٣

(٢٥) الخرد : النساء البكر التي لم تمس قط ، وقيل الخافضة الصوت : ١٦٢/٣

(٢٦) ينظر : شعر صفي الدين الحلي : ١٣٩ ، ١٤٠

(٢٧) الديوان : ٣٩٩

(٢٨) ينظر : شعر صفي الدين الحلي : ١٩٢

(٢٩) الديوان ، ٣٩٥

(٣٠) ينظر : بناء القصيدة في شعر صفي الدين الحلي : ١٥٩

(٣١) ينظر : النزعة الاخلاقية في شعر الغزل ، (رسالة ماجستير) : ١٠٧

(٣٢) الديوان ، ٢٨٥ ، ٢٨٦

(٣٣) سحري : الرئة ، لسان العرب : ٣٥١/٤ .

(٣٤) ينظر : المكان الاليف في شعر صفي الدين الحليّ ، (بحث) : ٢٧٠ ، ٢٧١

(٣٥) الديوان ، ٢٨٩

(٣٦) ينظر : المكان الاليف في شعر صفي الدين الحلي ، (بحث) : ٢٧٤ ، ٢٧٥

(٣٧) الديوان ، ٨٣

(٣٨) الشبق : يعني الامر الشديد ، لسان العرب : ٤٦٥/٧

(٣٩) الغدق : المطر الكثير العام : ٢٨٢/١٠

(٤٠) ينظر : نحو فهم جديد متصف الادب الدول : ٤١٠

(٤١) ينظر : المصدر نفسه : ٤١١ ، ٤١٢

المصادر والمراجع

١- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي ،(دراسة) ،عبد القادر فيدوح ، (د . ط).

٢- الادراك الحسي عند ابن سينا (بحث في علم النفس عند العرب) ، د. محمد عثمان نجاتي (استاذ علم النفس بجامعة القاهرة وجامعة الكويت) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط٣ .

٣- الاسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة ، مصطفى سويف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٤ .

٤- افاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، ياسين الايوبي ، رفعه : محمد النجدي ، طرابلس ، لبنان ، ط١ ، ١٩٩٥ .

٥- بناء القصيدة في شعر صفي الدين الحليّ ، نعيم الوطيفي ، مؤسسة دار الصادق الثقافية ، ط١، ٢٠٢٢ .

٦- بواعث الشعر في شعر الشواعر الاندلسيات ، رئام شاكر ،اشراف أ. د ياسر عبد علي الخالدي ، جامعة القادسية ، كلية الاداب ، قسم اللغة العربية (رسالة ماجستير) ٢٠٢٢ .

٧- البيان والتبيين ، ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تح : عبد السلام محمد هارون ،مكتبة الخانجي للطباعة ،القاهرة ، ط٥ ،١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م ، ج١.

٨- تجليات التضاد في ديوان محمود درويش الاخير (لاريد لهذي القصيدة أن تنتهي ، جامعة البلقاء ، قسم اللغة العربية ، العلوم الانسانية والاجتماعية ، (بحث) ، مجلد ٤١،عدد٢ ، ٢٠١٤ ، الاردن .

٩- الثنائيات الضدية (دراسات في الشعر العربي القديم)سمر الديوب ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة ، دمشق ، (د. ط) ، ٢٠٠٩ .

١٠- دواعي الشعر وحوافزه في الادب العربي القديم ، خالد صكبان حسين ، جامعة البصرة ، مركز دراسات البصرة والخليج (بحث) .

١١- ديوان صفي الدين الحليّ ، ابو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي السنبسي ت(٧٥٢هـ) ، تح : كرم البستاني ، دارصادر ، بيروت ، (د. ط).

١٢- شعر صفي الدين الحليّ ، جواد احمد علوش ، مطبعة المعارف ، بغداد ، (د. ط) ، ١٩٥٩ .

١٣- شعر صفي الدين الحليّ ، رفد اياد عبد المجيد ، دراسة تحليلية فنية ، دار دجلة للنشر والتوزيع ، عمان ، الاردن ، ط١، ٢٠١٥.

١٤- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن علي ابو الفضل ، جمال الدين ابن منظور الانصاري الافريقي (ت ٧١١ هـ) ، (د. ت) دار صادر بيروت ، ط٣ ، ١٤١٤ هـ .
١٥- لغة التضاد في شعر امل دنقل ، د. عاصم محمد امين ، دار صفاء ، عمان ، ط١، ١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٥ م .
١٦- مطلع القصيدة العربية ودلالتها النفسية ، عبد الحليم حفني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (د. ط) ١٩٨٧ .
١٧- المكان الاليف في شعر صفي الدين الحليّ ، عادل خضير ، اشراف أ.د صلاح مهدي الزبيدي ، جامعة ديالى ، كلية التربية للعلوم الانسانية ، (بحث) ، مجلة ديالى ، العدد الحادي والسبعون ، الاردن.
١٨- منهاج البلغاء وسراج الادباء ، ابي الحسن حازم القرطاجنيّ ، تح : محمد الحبيب بن الخوجه ، دار القرب الاسلامي ، (د. ط) .
١٩- نحو فهم جديد منصف لادب الدول المتتابعة وتاريخه ، نعيم الحمصي ، الجمهورية العربية السورية ، وبارة التعليم العالي ، جامعة تشرين ، اللاذقية ، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية ، ١٩٨١ _ ١٩٨٢ ، ج١ .
٢٠- النزعة الاخلاقية في شعر الغزل عند كثير عزة والعباس بن الاحنف (دراسة موازنة) ،رؤى سمير سالم ، اشراف أ.د ياسر عبد علي الخالدي ، جامعة القادسية ، كلية الاداب ، قسم اللغة العربية ، (رسالة ماجستير) ٢٠٢٢ .
٢١- الوان البلاغة في ديوان صفي الدين الحليّ ، سميحة بن صالح ، اشراف د. هاجر بعيه ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، كلية الاداب ، اللغة العربية ، (رسالة ماجستير) ٢٠٢١ .